﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

(من الآيه ١٧٠ سورة الأعراف)

إذن الاستمساك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمساك بمنهج الإيمان . ولذلك نسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسى والإشراق الروحى ، وعشنا مع التجلى والنور الذى يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، وساعة كنت تسمع الأذان كنت تجرى وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كأحد المصلحين . لأنه القائل : ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وقوله : ﴿ لا نضيع أجر المصلحين ﴾ بعد قوله : ﴿ يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ دليل على أن أى إصلاح فى المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استدمت أنت صلتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المندمجة فى بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : ﴿ والجبال أرساها ﴾ ولا يقال أرساها إلا إذا كان وجد شىء له ثقل ، فأنت لا تقول : « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول : « أرسيت لوح الزجاج على المكتب ليحميه » ، وأنت بذلك ترسى شيئاً له وزن وثقل .

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها فى الأرض أوتادا، والوَتد - كما نعلم - ممسوك من الموتود والمثبت فيه، بدليل أنه لو تخلخل فى مكانه نضع له ما نسميه «تخشينة» لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه، وهنا يقول الحق : ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ « نتقنا » أى قلعنا، وهناك قول آخر :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة النساء)

وقال الحق أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

وهنا اختلاف بين « نتق » و « رفع »؛ لأن الجبل راس فى الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض، ثم يأتى من بعد ذلك الرفع، و « نتقنا» تعنى نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم، أى أن هناك ثلاث عمليات : نتق أى نزع وخلع، ثم رفع، ثم جعله سبحانه ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه فى المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول : « وإذ » أى اذكر إذ نتقنا الجبل، أى نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أى لنجعله ظلة، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة « عذاب »؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له : إن أحكام هذه التوراة شديدة. وللإنسان أن يتساءل: لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التى جاءت لمصلحة البشر ؟. وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم ﴿ كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

لذلك نجد أن كل يهودى يسجد على حاجبه الأيسر، على الرغم من أن السجود

يقتضى تساوى وضع الجبهة على الأرض، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأوا الجبل فوقهم وتملكهم الخوف من سقوط الجبل، وكانوا يسجدون وفى الوقت نفسه يرقبون الجبل، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم، وصاروا لا يسجدون إلا على حاجبهم الأيسر، بسبب حكاية الجبل الذى نتقه الله وقلعه ورفعه فصار فوقهم. ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

والظن هو رجحان قضية، وقد يأتى ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين، مثل قوله الحق : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾

وحين بقيت الحالة هذه، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويتمردون على ما فيه؛ لذلك قال لهم الحق :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

و « خذوا » فعل أمر، والأمر يقتضى آمرا، ولابد له من شىء يأمر به. وكلمة «القوة » هذه هى الطاقة الفاعلة، والأصل فى الكون كله أن نقبل على كل شىء بقوة؛ لأن الكون الذى تراه مسخراً ليس له رأى فى أن يفعل أو لا يفعل، بل هو فاعل دائما إذا أُمِر، وكما قلنا من قبل : لم تغضب الشمس على الناس وقالت : لن أطلع هذا اليوم، وكذلك لم يمتنع الهواء، وأيضا لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث، أو أن ينظفه صاحبه ويأتى له بـ« البرذعة » ليجعله ركوبة متميزة، الحمار إذن لا يعصى هنا ولا يعصى هناك، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة يس)

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف، والمحكوم بالغريزة الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلى، ومع هذا الاختيار

فالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يَدْرِ ى عنها شيئا مع أن بها قوام حياته، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : َدق، والرئة كذلك وحركة التنفس، والحركة الدودية فى الأمعاء، والحالب، ويرغب الإنسان فى دخول دورة المياه عندما تمتلىء المثانة بالبول، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبدا، والأمور المحكومة بالغرائز ليس لنا فيها اختيار، كأن يأكل الإنسان ويتكلم فى أثناء تناول الطعام فتنزل حبة أرز فى القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال، هذا اسمه « غريزة » أى أمر غير محكوم بالفعل الاختيارى.

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاما فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه. أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع، وحين يقول له مُضيفه - على سبيل المثال - : أنت لم تذق هذا اللون من اللحم، فيأكل. ولهذا نجد أن الأمراض فى الانسان أكثر من الأمراض فى الحيوان؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضر به وتؤذيه.

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان، نجد الإنسان يغلى النعناع ويشربه، ويطبخ الملوخية ليأكلها، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية، رغم تشابه أوراقهما. لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب، وهما يفعلان ذلك بالغريزة، فالمحكوم بالغريزة له نظام، ولو كان الحيوان مختارا لارْتبكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها.

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة، وهذه القوانين موجودة فى الكون لتخدمنا نحن بنى البشر. فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن ننتفع بها، لكن بعد ذلك انتفعنا بها، وكذلك الجاذبية، كانت موجودة فى الكون منذ الأزل، لكننا لم ننتبه لها، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار فى

بعض الأمور، وله جهة قهر فى البعض الآخر، فهو يشارك الكون فى القهر، ويتميز عن بقية المخلوقات - عدا الجن - بالاختيار فى أمور أخرى. ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذى يعانى قلبه من ضعف ما، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً ينهج ويتتابع نَفَسه من الإعياء وكثرة الحركة، لأنّ غريزته المحكوم بها تُنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطى الأوكسجين الذى يساعد على الصعود.

ومثال آخر، نجد الذكر من الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها، فإن وجدها حاملاً لا يقربها، والحيوان فى هذا الأمر مختلف عن الإنسان؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التى تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع، ومادامت الأنثى قد حملت، فالذكر لا يقربها، فاختلف الإنسان عن الحيوان فى هذا الأمر؛ فلذة الإنسان فى الجنس أعلى من لذة الحيوان؛ لأنها فى الحيوان ترضخ للغريزة فحسب، أما فى الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضا للاختيار الذى منحه الله للإنسان

ومن رحمة الله - إذن - أن يكون الإنسان مقهوراً فى بعض الأشياء ومختاراً فى أشياء أخرى، بـ« افعل » و« لا تفعل » حتى يختار بين البديلات.

وهنا يقول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾

أى خذوا ما آتاكم فى الكتاب بجد واجتهاد. وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم فى شرح معنى القوة. وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقعه المادى، فصرنا نرى الطاقة التى تعطى القوة. وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية، القانون الأول والثانى والثالث، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه، فإن كان ساكناً يبق على سكونه إلى أن يأتى محرك يحركه. وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسكه ماسك. وسمّى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتى. أو التعطل، أى أن الساكن يُعَطّلُ عن الحركة إلا أن يحركه محرك، والمتحرك يُعَطّلُ عن السكون إلا أن يوقفه موقف، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير، فإنك تظل ساكناً، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشىء.

وفي الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتي بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً، ثم يحرك المفرش بخفة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش.

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة، وقلنا: إنّ العطالة تعني أن الساكن يتعطل عن الحركة، والمتحرك يتعطل عن السكون، وهذه هي القضية المادية في الكون التي خدمت العلم الفضائي الخاص بسفن الفضاء والصواريخ. ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور في الفضاء بالوقود، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذي يسيرها لسنوات، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة إنّها بدون وقود، وهي تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكوني، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف. ونرى ذلك في التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدها، وهي تقع بعد مسافة معينة؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف، أما في الفضاء الخارجي فليس هناك هواء؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء، لأنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة.

وهذه السفن الفضائية تعتمد في صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجي. والصواريخ تسير بالغاز المتفلت الذي أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن، وهو القانون القائل: إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاد له في الاتجاه، وحين يسخن هذا الغاز المتفلت يخرج من خلف الصاروخ بقوة فيندفع الصاروخ للأمام.

وهكذا نرى قول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ في الواقع المادي والواقع القيمي. وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين في بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها، فالواحد منهم لا يصلي، ولا يزكي، ولا يقول كلمة معروف، وهو في ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله. ونجد أيضا من غير المتدينين من يشرب خمرة. أو يزني أو يسرق أو يرتشي. وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده

عن مثل هذه الحركة. ولذلك نقول : إن الإنسان فى أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير، وإن كان متحركا إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيمانى فى « افعل »، و « لا تفعل ». فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صلّ. ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه، إذن فالقوة الشرعية تكون فى المنهج بـ «افعل » ليحرك الساكن، و « لا تفعل » ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة فى ضوء المنهج.

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستغلق علينا فى قوانين الكون، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمناها نحن فى إطار الماديات والمعنويات، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين فى الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم، بل علينا أن نشحذ الهمم لنتقدم فى العلم الذى يُسير أمور الحياة، ولنعلم أنه لا شىء ينشىء فينا فطرة جديدة؛ لأن البشر من قديم مفطورون على الفطرة السليمة التى تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد. بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين، وهم ببحثهم وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شىء لا يظن وجوده. ولأنهم جميعا يعلمون أن الإنسان طرأ على كون، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعا أن تأتى بمثلها، إذن لابد لهذا الكون من خالق.

لقد بيّنا أن القوانين التى تظهر لنا فى المادة تتماثل مع قوانين القيم، إلا أن الناس يتهافتون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شرا، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التى تحقق له السعادة العاجلة فى الدنيا والآجلة فى الآخرة، أما قوانين المادة فى الأرض فتركها الله لنشاط العقل، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها، ويتهربون من قوانين القيم لأنها تحد من شهوات النفس، وتتعب بمشقة التكليف، فشاء الحق

سبحانه وتعالى أن يقول فيها :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم فى الفعل ورد الفعل ، لنفهم أن كل حركة للشر قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها ، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له فى الحركة ومضاداً له فى الاتجاه ، فإن كنت ترتاح فى هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذى يأتيك بالعقاب عليه ، وكذلك مشقات التكليف ، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى هذا القول فعل ورد فعل ، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت ، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنىء فى الآخرة . ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة التوبة)

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل . ويأتى الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فلسوف تتلقى العقاب .

ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . وإياكم أن تطرأ عليكم الغفلة من هذه الناحية ، فالذى يتعب الناس فى مناهج الله أنهم يغفلون عنها ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء ، والمعاصى تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل فى هذه القيم .

ونعلم أن لذِّكْر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأنا أعظ من عَلِمَ الحكم ؛ لأنى أريد أن يفعله ، فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الوَاعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاءنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل فى تطبيق هذا العلم . ونظل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

ولماذا هذا التذكير ؟ . يجيب الحق :

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهى عن المنكر عظة قولية ، ويعددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول فى الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »[1] .

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهى وهو قول أيضاً إلى أن يباشرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين

(١) رواه مسلم

المعلومة التى تدخل الذهن، وحمل النفس على مطلوب المعلومة. ولذلك نحن ندرس الدين فى مدارسنا، وندرس فيها أيضا الجبر والهندسة، والكيمياء، والطبيعة، والمتعب ليس تدريس الدين، بل الذى يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين. لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء، فهذه علوم تعطى الإنسان خير الدنيا فيذهب لها، لكن مسألة الدين مسألة قيم؛ لذلك لا يكفى أن نعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم، وتنفيذ هذه المسألة يكون بالتطبيق فى سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة.

وهب أن الذى يُعلم الدِّين يدرسه معلومة ويدخلها فى نفوس التلاميذ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نضحاً على سلوك مَن علَّمها، ماذا يكون الموقف؟. هنا تضعف ثقة التلميذ فى أستاذه، وتضعف ثقته فى الدين؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه، وفى هذا فشل فى تعليم منهج الدين. والخطأ إذن فى أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية، لا. إن تعليم الدين يقتضى تنفيذ ما فيه من معلومات، عكس العلوم الأخرى التى تعطى المعلومة فقط. وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها فى حياته انتفع، وإن لم يرد فهو حر فى ذلك.

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهى عن المنكر، ومرة يكون بالفعل، « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه »، وماذا يعنى التغيير باللسان؟. يعنى أن الإنسان إن كان عنده حسن تأدٍ واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح فله أن يقبل على تناول العظة. وليس كل إنسان صالحا لأن ينصح؛ لأن المنصوح يخالف المنهج، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج، إنه يخرجه عما ألف وأحب، لذلك يجب أن يتلطف الناصح فى النصح.

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء، والدواء قديماً كان كله مرّاً. وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء. وحين ارتقت صناعة الدواء، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب المرارة. ليلتطفوا مع مريض الجسم، فما بالنا بمريض القيم؟. إنه يحتاج إلى المسألة نفسها. لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً، ولا نجمع على المنصوح بين

أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب، ولذلك قلنا : إن النصح ثقيل، لأنك حين تنصح إنسانا فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وهو أقل منك فى ذلك، وهذا هو أول مطب، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه. ولهذا قالوا فى الأثر : النصح ثقيل فلا ترسله جبلا، ولا تجعله جدلاً. وقيل أيضا: الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان. هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر، وهذا لا يأتى إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغيَّر يثبت فيها المغيِّر أنه يحب مصلحة المغيَّر. وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول. كأن تكون أباه أو أمه، والأب والأم يقومان برعاية الابن، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً. وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن. وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب. فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئا من المعروف فيتحمل منك النصح.

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن. ثم تأتى له بالساعة وتقول له : يا ولد أنت أردت منى ساعة وأحضرتها لك، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لى إنك غير مهتم بدروسك، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة. وقد توجه له توبيخاً فيضحك لأنك قد حننت قلبه، وبينت له أنك تحبه فيقبل النصح، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته. إذن للتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول، وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب.

﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ والأصل فى التقوى أن تتقى شيئاً بشئ؛ تتقى مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه، وهى تأتى كما علمنافى المتقابلات؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساءل : كيف يقول : « اتقوا الله »، و«اتقوا النار»؟

نقول : نعم؛ لأن اتقوا الله تعنى اتقوا غضب الله عليكم، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية، ولابد أن تجعل بينك وبين النار وقاية؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كما علمنا له صفات جلال وصفات جمال، وصفات الجمال هى التى تسعد الإنسان ككونه - سبحانه - "غفوراً"، و"رحيماً"، "باسطاً"، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة، فهو - جل شأنه - جبار ومنتقم. فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التى منها جبار ومنتقم.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ ١٧٢

وإذ تنصرف إلى الزمن، أى اذكر وقت أن أخذ الله من بنى آدم، والآخذ هو الله، والمأخوذ منه بنو آدم، والشيء المأخوذ هو ذريتهم، هذه هى العناصر. ولنتأمل

ذلك بدقة ، إن الرب هنا هو الآخذ ، وبنو آدم مأخوذ منهم ، والمأخوذ هو الذرية. وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة ، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه ، ولابد أن نرى تصريفاً فى هذا النص ؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً ، والمأخوذ بعضه .

والمثال : إن أنا أخذتُ منك شيئاً ، فالمأخوذ منه هو الكل ، والمأخوذ بنفسه هو البعض . لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه ، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال فى هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه :

(لما خلق الله أدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم ، فقال : أىْ رَبِّ. من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأى رجلاً منهم . فأعجبه وميض ما بين عينيه. فقال : أى رب . من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك ، يقال له داود ، فقال : رب كم جعلت عمره؟ قال : ستين سنة . قال : أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما قُضى عُمُر آدم جاءه ملك الموت. فقال : أو لم يَبْقَ من عُمُرى أربعون سنة؟ قال : أولم تعطها ابنك داود؟ قال : فجحد آدمُ فجحدتْ ذُريته ، ونسى فنسيت ذريته. وخطئ آدم فخطئت ذريته)[1] .

إذن ذرية آدم أُخذت من ظهر آدم. وعرفنا من قبل أنّ كُلاً منا قبلَ أن تحملَ به أمّه كان ذَرَّةً فى ظهر أبيه ، وأبوه كان ذرّة فى ظهر أبيه حتى آدم. وهكذا نجد أنَّ كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية ، هناك أناس يؤخذون- كذرية- ولا يؤخذ منهم ، مثّل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً ، وكذلك آخرُ جيل تقومُ عليه الساعة ، ولن ينجبوا. وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق ، وهو غير مأخوذ من أحد. وما بين الأب آدم وآخر ولد ؛ مأخوذ ومأخوذ منه.وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه، وهكذا يستقيم المعنى.

(١) رواه الترمذى فى سننه وقال حديث حسن صحيح.

والمأخـوذ منه آدم ثـم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجـيل الأخـيـر الذى سينقطع عن النسل.

وأوضح النبى صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهـر آدم وأخرج منه الذرية ، وقـال لهم : ألست بربكم؟ قـالوا : بلى. وبهـذا عَلِمْنا أنّ كل ذرّة من الذرات قد أُخذت مما قبلها ، وأُخذ منها ما بعدها ؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه ، اللهم إلا القوسين ؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شىء ، والقوس الثانى : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه ؛ لأن الإنسان منا وُجد من حيوان أبيه المنوىّ. ولو أن الحيوانَ المَنَوىَّ أصابه موت لما أنجب الأب. ومن وُلد من حيوان مَنَوِىّ لأب ، هذا الأب مأخوذ من حيوان مَنَوىًّ حىّ من الجد أيضاً ، وسلسلها إلىَ آدم ؛ ستجد أن كل واحد منا فيه جزىء حَىّ من لدن آدم لن يدركه موت أبداً.

لذلك يقول ربنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ولا تقل إن الكل سيكون فى ظهره ؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود فى ظهره ، ومادام كل شىء يتكاثر فهو قد وجد من أقل شىء ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً. وقد أخذ ربنا من ظهور بنى آدم الذريةَ وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿ ألست بربكم ﴾ ؟.

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على النطق ؛ إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر ؛ لتتحد مثلاً بـ " البويضة " فى رحم الأم ؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمرٌ صعب ؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يَتعلّم عَشرَ لغات ، ويتزوجَ من أربع سيدات ، وكل سيدة ينجب منها ذرية ، ويقعد يوماً عند سيدَة وذريتها ويعلمها اللغة الإنجليزية مثلا ، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية ، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية وهكذا ، بل يستطيع أن يتفاهم حتى

بالإشارة معَ من لا يعرف لغته. وإذا كان الإنسانُ يستطيع أن يعدد وسائل الأداء، ألاَّ يقدر أن يعدد ربنا وسائل الأداء لمخلوقاته ؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال :

﴿ يا جبال أوبى معه ﴾

(من الآية ١٠ من سورة سبأ)

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أيّاً من مخلوقاته؟. إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر. وهو القائل سبحانه :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء)

ونعلم من القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الإسراء)

وحتى ذرات يد الكافر تسبح، وإن كان تسبيحها لا يوافق إرادته.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسبيح داوود وتلاوته للزبور، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق، فنحن - على سبيل المثال - نقرأ في القرآن الكريم أن ربنا أوحى إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. إذن فلله مع خلقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات، وله سبحانه خطاب بألفاظ، وخطاب إشارات، وخطاب بإلهام، وخطاب بوحى، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لذرية آدم : ألست بربكم ؟ فهذا يعنى أنه قالها

لهم باللغة التى يفهمونها، لأنه هو سبحانه الذى قال للسماء والأرض:

﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

(من الآية ١١ من سورة فصلت)

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها، ولو لَمْ يُعْلِم اللهُ سليمانَ كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت:

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة النمل)

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها، ولكن سليمان نبى من أنبياء الله، ولن يعتدى على خلق الله، والنملة التى تكلمت كانت تحرس بقية النمل. وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها.

إذن فالله عز وجل يخاطب جميعَ خلقه، ويجيبُه جميعُ خلقه، فلا تقل: كيف خاطب المولى سبحانه الذر، والذَر لم يكن مكلفاً بعد؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا فى هذه المسألة؛ لأنها فى ظاهرها بعيدة عن العقل، ويكفى أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلا: ألست بربكم؟. قالوا: بلىَ. ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للفطرة المودعة فى النفس البشرية. وكأنه سبحانه قد أودع فى النفس البشرية والذات الإنسانية فطرةً تؤكد له أنَّ وراءَ هذا الكون إلهاً خالقاً قادرا مدبرا.

وقديماً قلنا: هب أنَّ طائرةً وقعت بك فى صحراء، وحين أفقت من إغماءة الخوف؛ فكّرت فى حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً، وأصابك غمٌّ من هذه الحالة فنمت، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطايب الطعام والشراب، ألا تتلفت لتسأل من الذى أقام لك هذه المأدبة قبل أن تمد يدك إلى أطايب الطعام؟. كذلك الإنسان الذى طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع؛ البديع

التكوين ؛ ألا يجدر به أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون ؟.

إننا نعلم أن المصباح الكهربى احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة ، وحين نرى الشمس تنير الكون كله ، ولا يصيبها كللٌ أو تعبٌ ولا تحتاج منا إلى صيانة ، ألا نسأل من صنعها ؟ . وخصوصاً أنَّ أحداً لم يدَّع أنه قد صنعها ، وقد أبلغنا المولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذى خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر ، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً ؛ فنعبده ، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عمن صنع وخلق الكون لنعبده .

وبما أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه صناعة هذه الكائنات ، فهى تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله. إذن فالفطرة تهدينا أن وراء هذا الكون العظيم قدرةً تناسب هذه العظمة ؛ قدرة تناسب الدقة ؛ هذه الدقة التى أخذنا منها موازين لوقتنا ؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن ؛ ولولا حركة الأفلاك التى تنظم الليل والنهار ؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات ، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية ؛ لما استطعنا أن نَعُدَّها مقياساً للزمن. وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾

(سورة الرحمن)

نجد أن كلمة " بحسبان " وردت مرتين ، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى : أنه جعل الشمس والقمر بحسبان ، أو حسبانا ، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثا بل لحكمة عظيمة .

﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

فقد أخذنا من دورة الشمس والقمر مقياساً ، ولم نكن لنفعل ذلك إلا إن كانت مخلوقة بحساب ؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة

والإحكام، لهذا يجب أن نلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته. لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل ؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أنَّ هناك قوةً ولا يعرف العقل اسم هذه القوة، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة، وكان لابد أن يأتى لنا رسولٌ من طرفِ تلك القوة ليقول لنا مرادَها ، وجاء الموكب الرسالى فجاءت الرسل ليبلغ كلُّ رسول مرادَ الحق من الخلق، فقال كلُّ رسول : إن اسم القوة التى خلقتكم هو اللهُ، وله مطلق التصرف فى هذا الكون ، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون فى ضوء منهج عبادة الحق الذى خلق الإنسان والكون. وكل هذه أمور ما كانت لتدرك بالعقل.

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمانٌ بقوة خالقة وراءَ هذا الكون ، وتستوى العقول الفطرية فى هذه المسألة. أما اسم القُوة والمَنهج المطلوب لهذا الاله فلابد له من رسول .

وأرهق الفلاسفة أنفسهم فى البحث عن هذه القوة ومرادها. وسموا مجال البحث "الميتافيزيقا" أى "ماوراء الطبيعة" وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان : ومن الذى قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟.

وغالباً ما يقول الفيلسوف منهم : إنها الفطرة التى هدتنى إلى ذلك. وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة. وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة، وهذا هو الخلل؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة، ولا يمكن له أن يتصورها . وغرق الكثيرون من الفلاسفة فى القلق النفسى المدمِّر. وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان. وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلّوا لنا هذا اللغز، بدلاً من إرهاق النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة، وبين تصور هذه القوة.

وإننى فى هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو آلا تنسوه أبداً : إننا إذا كنا قاعدين فى حجرة، والحجرة مغلقة الأبواب. ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالباب؛ وهذا الشىء المجمع عليه من الكل يَعدُّ تعقلاً، لكن أنستطيع

أن نتصور من الطارق ؟ رجل؟ امرأة؟ شاب ؟ شيخ؟. المؤكد أننا سنختلف في التصور وإن اتحدنا في التعقل.

ونقول للفلاسفة : أنتم أولى الناس بأن ترهفوا آذانكم لمجيء رسول يحل لكم لغز هذا الكون، واسم القوة التي وراء هذا الكون، ومطلوب هذه القوة منا.

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل، ويقول هنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهذه شهادة الفطرة، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة في الطفل المولود الذي يبحث بفمه عن ثدي أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدي ليرضع بالفطرة وبالغريزة، وهذه الفطرة هي التي تصون الإنسان منا في حاجات كثيرة، وفي رد الفعل الانعكاسي ؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل، فيغمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك.

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن في عالم الذر :

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾

ويقال " أشهدته " أي جعلته شاهداً، والشهادة على النفس لَوْنٌ من الإقرار، والإقرار سيد الأدلة؛ لأنك حين تُشهد إنساناً على غيره؛ فقد يغيّر الشاهد شهادته، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة :

﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾

فحين يأتي يوم الحساب، لا داعي أن يقولَن أحد إنني كنت غافلاً.

ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله :

﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

كأن الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فينبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة فى كل إنسان ؛ حيث شهد كل كائن بأنه إلهٌ واحدٌ أحَدٌ، ويذكرنا سبحانه بهذا العهد الفطرى قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا.

﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وهل كان أحد من الذر وهو فى علم الله وإرادته وقدرته يجرؤ على أن يقول : لا لست ربى ؟. طبعاً هذا مستحيل، وأجاب كل الذر بالفطرة " بلى ". وهى تحمل نفى النفى، ونفى النفى إثبات مثل قوله الحق :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(الآية ٨ سورة التين)

و" أليس " للاستفهام عن النفى؛ ولذلك يقال لنا : حين تسمع " أليس " عليك أن تقول " بلى " وبذلك تنفى النفى أى أثبتّ أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غيره سبحانه، وهنا يقول الحق : " ألست بربكم " ؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا . ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب، والذى جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرّك شهواتهم فى نطاق الاختيار، ومع وجود الشهوات فى نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم؟ يقولون : الله، ومادام الله هو الذى خلقهم فهو ربهم.